قصة

القدر الساخر . . .

الآنسة غفران حافظ شرابي مديرة القسم الداخلي لدار المعلمات الابتدائية ببغداد، من أديبات فلسطين الشقيقة المعروفات، ومن خريجات كلية المعلمات في القدس، وقد زاولت مهنة التعليم في ثانويات فلسطين قبل مجيئها العراق وطنها الآخر . . ونشرت لها مختلف الصحف مقالات نفيسة كما اذاعت لها محطات الاذاعة الغربية في القدس والشرق الادنى بعض الاحاديث، ولها كتاب ستقدمه الى المطبعة قريباً بعنوان [زوجات النبي] . .

وها هي اليوم تخص البيان بقصتها هذه التي ننشرها لها شاكرين . .

« البيان »

مهما حاول القصاصون مد خيالهم وتعميق حوادثهم فلن يصلوا الى الروعة التي تستطيعها يد القدر، فحقائق الحياة فيها من التعقيد والمفاجأة ما يقف المرء أمامها مذهولا ولا يشعه إلا أن يسلم بأن الحكمة التي يسير عليها الكون أعمق من أن يصل البشر الى قرارتها بسهولة، وان نستطيع فهم لهذه الحكمة إلا بعد اسدال الستارة على الفصل الأخير لكل حادث

نشأ أحمد في بيئة متوسطة الحالة المادية والاجتماعية وأتم تعليمه الثانوي وعمل مدرساً، وكانت الحياة تمضي به هادئة بسيطة كالعشرات من أمثاله الذين يولدون ويعيشون ثم يموتون في نفس البيئة، ولكن صاحبنا لن يرضى من الزمان بما رضيه غيره، وأخذ يرسم لنفسه الخطط التي توصله الى الثروة والمركز من أقرب طريق، وزاد تلهفه بعد ان أخذ الشيطان بيده يجره نحو قصر شاهق، صاعداً معه سلما كثير الدرجات ليقف به خلف نافذة فتاة ذات ثراء ومنزلة ويترك الشيطان وقد بلغ مأربه من إثارة الطمع في روح الشاب وانتبه صاحبنا لنفسه لن يجديه وقوفه خلف شباك لا يستطيع دخول بابه الذي لا يفتح لأمثاله من المغمورين

تساءل في حيرة كيف الوصول الى الفتاة ؟ لا حبابها ولكن ليرتفع بمنزلتها وليسعد بمالها وهنا تدخلت يد الرحمة فأذكرته أن « العلم يرفع بيوتاً لا عماد لها » فأقدم على الدراسة واختار القانون وسار النجاح في ركابه وهو يصعد درجات القصر سنة بعد أخرى حتى نال اجازة الحقوق وعمل محاميا وأخذ يبذل الجهد ويسهر الليل فابتسمت له الدنيا في ابتسامة إقبال أصحاب القضايا ومدّ له القدر يدين مملوءتين بالمال والشهرة . .

ترك « أسعد بك » ثروة طائلة لعائلته بعد موته وتتكون الكثيرة التي تطالعه .

وجعل الدوي يزداد وضوحا كلما دنا حمار أبي علي من رأس الهضبة حتى أشرف على الموكب، وكان موكباً عامراً تلوح فيه كوفيات الرجال الى جانب أثواب النساء ذات الألوان الزاهية المزركشة بالشرائط، وأمامه الاطفال يتراكضون متواثبين على نغمات الجوقة القروية .

وترجل أبو علي عن حماره منتحياً جانب الدرب ليسأل أول قادم عن طريق الطميرقية، وقد اعتقد أنه موكب زفاف يقصد الى احدى القرى لمرافقة عروس . . ولكنه لم يكد يتصل بمقدمته حتى فوجئ باسمه يتعالى على ألسنة الصبايا والشباب بين « الشوبشات » والزغاريد : « شاياش يا أبو علي . الله يديمك يا أبو علي . . »

ووقف صاحبنا لحظة تنمره الدهشة غير أنه ما لبث إلا قليلا حتى أطلت عليه وجوه مديونيه من الطميرقيين أنفسهم يتقدمون الجمع ليخبروه ان القرية قد خرجت بأجمعها لاستقبال الرجل الذي أنقذ سكانها من أنياب الجوع . !

طرطوس : محمد مجذوب

العائلة من أم وولد وابنتين وأصبح سعيد عميد الأسرة الجديد يدير ثروة أبيه بهمة وحرص ، ويرعى أمه واخيه بحنان الأب ورأى براعم صبا الفتاتين فتهفوا القلوب وتزاحم شباب البلد وخيرة رجالها يطلبون مصاهرة هذه العائلة الكريمة ولكن ولدهشة الجميع كان الرفض نصيب كل طالب مهما كانت مؤهلاته وأسرع دولاب الزمن بالفتاتين وهما في انتظار الحياة المستقرة التي أوجدتها الطبيعة للمرأة ولكن عبثاً كان انتظارها فثارت في نفسيهما الشكوك وكانت الأم أكثر منهما قلقاً لمسلك ولدها وان كانت تحاول أن تكتم مابنفسها وطفح الكيل عندما رفض الأخ يد طبيب له مكانته ومستقبله ، وذهبت الأم تغلي في نفسها مراجل غضب مكتوم .

ـ سعيد بماذا أجبت الدكتور ؟ ـ انه ليس كفوءً يا اماه

لماذا ياسعيد ؟ وركزت في وجهه عينين متهمتين لم يستطع الصمود لهما فانحنى يتشاغل باوراق أمامه وهو يقول : ـــ لم يحن الوقت بعد .

ـــ لمن تقول هذا ياسعيد ؟ ماهي أسباب رفضك الحقيقية؟ انتظر حتى يرفض الناس مصاهرتنا إذ تكرر رفضنا وعندها

ـــ وعندها ... ماذا تعنين ؟ ستعيشان معي مدى العمر في أتم راحة وعندها من المال مايكفيها فما حاجتها الى الزواج؟

ـــ أية فلسفة هذه ياسعيد ؟ ان أموال العالم لن تسعد المرأة منفردة فهل ينوي محاربة الطبيعة ؟ اسمع يابني ، لن ارضى ان تقف بين اختيك وبين حقها من السعادة والحياة .

ـــ واسمعي أنت يا أماه .. لن أرضى بحال أن توزع ثروة والدنا على غرباء لم يساهموا في جمعها وانمائها ... لن يكون هناك زواج لأحدها إلا اذا تنازلت عن كل مايخصها هذا مالدي قلته ..

دارت الأيام وتجنب الناس هذه العائلة ، وأصيبت الابنة الكبرى بمرض ألزمها وذبل جمال الثانية أو كاد وهي تنظر برعب الى المستقبل المجهول ؛ وأفعمت نفسها بمرارة لاحد لها ... واذا هناك خلال ضباب اليأس يلوح نور ضعيف .. ان مصباح رغبة أحمد لم ينطفئ بعد .. لقد سمعت العائلة باسمه يتردد على ألسنة علية القوم وهم يتناقلون انتصاراته في التقضاء ... لقد نال المال ونال المجد ولم يبق إلا تحقيق الحلم القديم ، حلم الزواج من سعاد ابنة « أسعد بك »

كان أحمد يتتبع أحاديث القوم عنها طيلة السنوات الماضية لهذا لم يطلب يدها من أخيها وأرسل الطلب الى الأم الذي رأت طلبه نعمة السماء فوافقت وأخذ يتردد على البيت محملا بثمين الهدايا وكانت مشاورات واستعدادات في طي الكتمان واستأجر أحمد بيتاً فخماً على سفح الكرمل في حيفا وأنفق على تأثيثه معظم مايملك من مال ، بينما أنفقت العروس كل ما ادخرته الأم والأختان سنين طويلة أنفقتها في جهاز سعاد

وعلم الأخ وثارت ثائرته وحاول ايقاف الاجراءات ولكنه لم يستطع إلا طرد أمه وأخته المريضة من البيت لتلتحقا بسعاد ولم يجد أحمد في ذلك عبئاً فان لهما من الممتلكات مايزيد في سعادته ... إن كان هناك مجال للمزيد.

هنأته يوم زواجه وكانت الحالة في فلسطين تغلو كالمرجل وقد خرج الامر من يد السلطات واصبحت الارواح أرخص مافي الأسواق ، واضطرتني الحياة على النزوح عن حيفا وانا مؤمل كما أمل كل فلسطيني حين ترك بلده انها بضعة أسابيع ويزول الانتداب و . . . ونصبح أحراراً كراما ، ولكن لم يمض الاسبوع الأول على خروجي حتى خرج أهالي حيفا العرب هاربين بأرواحهم لايحملون من متاع الدنيا إلا ماستر أجسامهم ، وقد تركوا جهد العمر لقمة سائغة للعدو اللئيم ، وكانت احدى نكبات القدر التي أذهلت المرء عن أمه وأبيه وتبعتها نكبات حتى صرنا كإذا اضابتنا سهام تكسرت النصال على النصال ، وشتتنا يد الدهر وذل عزيزنا وجاع كريمنا .

ولقيت صاحبي أحمد في سوريا بالسخرية القدر سبعة أيام فقط لاغير قضاها في قصر أحلامه ثم تركه بما فيه ليواجه أقصى ضربات القدر وعلى كاهله ثلاث نساء لايملك واياهن من حطام الدنيا إلا مايستر الجسم فاضناه الكد في سبيل الرزق ، وقفز به العمر في أشهر قليلة سنوات كثيرة ..

وقفت ويدي في يده وفي عيوننا دمعة وفي الحلق مناغصة،